اما الذين لم يفقلوا شيئا لاجل الثورة ، فيجب نفيهم عن الامة ، بعد النصر . وقد صدمني ذلك الحكم المبرم ، وتلك العودة الى الحجة المطلقة ، الى اقصى حد . فالعالم لا يقتصر على الثورة الفلسطينية وحسب . ويجب ان تكون لاي امرىء — حتى الفلسطيني — حرية القيام بالابحاث على النحو الذي يرتأيه . يمكنه ان يخطىء ، ويمكننا ان نهمل ابحاثه . وحتى شخصه . لكن نفيه خارج جماعة — مهما كانت احجامها متواضعة — يعني نفيه خارج المجموعة الانسانية بأكملها . وهذا بالضبط ما تفعله الاخلاق البرجوازية — غربية كانت ام لا — حينما تطرد ، او تسجن ، او تعزل في موقع هامشي ، كل رجل لا يعترف بالقيم المتداولة .

ويجيبني عصام : « ربما اسأت فهم ذلك » .

ربما . فأنا اسيء الفهم بعض الاحيان . اما فيما يختص بحركة التحرر ، فما ان ارى محاولة حكم تسلطي ، ولهجة ادانة حاقدة حتى اخشى ان تكون الحركة قد بدأت تنكر نفسها ، او تهبط الى « الجدانوفية »* .

ثم قال لي : « ما كان البسطاء ليفهموا ذلك » .

فأجبته بشيء من الحدة : « البسطاء اقل غباء مما تعتقد ، وهم قادرون على فهم كل شيء تقريبا » .

على الرغم من حالة البؤس ، وعلى الرغم من البطالة الاضطرارية ، لم الحظ في المخيمات ذلك الاغتراب وذلك الضيق اللذين يسببهما دائما فصل نشاطات المرأة عن نشاطات الرجل ، والتفرقة بين مجال النساء ومجال الرجال . وعوضا عن ذلك الخمول الخبيث في نظرات سكان المغرب مثلا ، فان مخيمات الاردن ، وان لم تكن تعج ببهجة القواعد ، كانت تتسم بالصفاء والكرم .

فالارادة الثورية لا تقتصر على استعمال مرادفات مؤثرة ، ولا حتى على استعمال البندقية ، بل هي ايضا مرتبطة بالتحدي الرامي الى العيش حياة سعيدة . انني لا اعرف ، في العالم العربي ، شعبا يتوق الى التخلص من الافكار المضجرة مثل الشعب الفلسطيني ، والى التحرر من الاعمال المرهقة ، من الثياب الرثة ومن المواقف المذلة . واذا وضعنا جانبا البرجوازية الفلسطينية ، وهي شبيهة بسواها من البرجوازيات ، فالمخيمات الفلسطينية تتسم بالارادة في مجابهة الحقائق وجها لوجه .

نافذة الغرب على العالم الثالث

كانت الثورة الفلسطينية — المقاومة كما سميناها اول الامر — تصلنا عبر مصفاة الصحافة . واذا كانت تلك الصحافة تتقيد بذلك الحجاب الذي ارادته اسرائيل ، فقد كان هناك ثمة شيء اخر ، الا وهو النظرة للعالم الثالث . فالقراء الاوروبيون يريدون صحفا « نظيفة » : حتى وصف الثورات عليه ان يكون مطهرا ، خاليا من البقع ، ناصع الاسلوب ، لئلا ينزعج القارىء . وبما ان العالم الثالث موضوع مضجر بالنسبة اليه ، فما يجري فيه يجب ان يعرض على طريقة القصة المسلسلة ، مرفقا بكل التفصيلات الضرورية ، على ان ترد البقية « في العدد القادم » . فالعالم الثالث ، اذا اردنا ، يجب ان يكون رفيق القارىء المسلي في الصحيفة . واخيرا ، فان المستعمر (بفتح الميم) او الذي تحرر من الاستعمار — وما زال مستعمرا في الواقع — اصبح عنصرا هاما في مناظر البلاد البعيدة لدى الاوروبيين : فهو ينظر الى صورة امرأة عربية تعمل ، او رجل اسود يتسلق دربا وعرة ، كما ينظر الى صورة ببغاء ابيض على غصن شجرة استوائية . فالثلاثة في امكانهم الطبيعية ، واوروبا لا تخشى شيئا من هذه الناحية .

---

* جدانوف : رقيب الادب والفن في عهد ستالين .